وهى تذوق الثقافتين والاعتراف من المنهلين، وإخراج أدب وعلم وفلسفة غذيت بما للعرب والاسلام من ثقافة، ولقحت بما للاوروبيين من ثقافة ومنهج، فيها اللغة العربية قوية رصينة وروح الاسلام قوية متينة. وفيها ما للاوروبيين من عرض للمسائل جذاب ونهج فى الكتابة رشيق وفيها مقارنة شهية بين ما أنتجه الأولون والآخرون.

لو تم ذلك لرأيت التاريخ الاسلامى يعرض على القراء فى شكل محبوب يقرأونه ويستسيغونه، ورأيت الأدب العربى يقدم الى الجمهور ثوبه الجديد يألفونه ويحبونه ورأيت الفلسفة الاسلامية يغاص عليها غوصاً عميقاً ثم تخرج من أصدافها وتجلى للقراء درة لامعة.

هذا هو السبب فى نجاح رفاعه باشا ومدرسته فأنتجت انتاجا غذى عصرهم بل كان فوق كفايتهم؛ فقد أرسل رفاعه الى فرنسا بعد ان درس فى الأزهر وتعمق فى العربية والعلوم الاسلامية فلما حصل على الثقافة الفرنسية وضع يده على المنبعين فأخرج هو ومدرسته للناس ما استساغوه وأحبوه ونهضوا به ولم يكن كذلك من لحق بهم وخلف من بعدهم.

وقد كان أخواننا الهنود أسبق منا الى ايجاد هذه الحلقة والانتفاع بها. أخرجوا التاريخ الاسلامى فى ثوب جديد على نمط ما يكتب الغربيون ولكن بروح اسلامى وكتبوا فى الدين الاسلامى والفقه الاسلامى بلغة العصر وروح العصر ونظام العصر كما فعل السيد أمير على والسيد محمد اقبال فقد تضلع هذان العالمان الجليلان من الثقافة الاسلامية والاوروبية؛ وأشرب قلباهما حب الاسلام فأخرجا كتباً يقرؤها الشاب المثقف فيحبها ويحب موضوعها ويستزيد منها، ويقرؤها الشاب المتعلم المتخصص فى الطبيعة والكيمياء فيجدها تتمشى مع العلم الذى ثقفه والنهج الذى ألفه — وتقرأ السيد محمد اقبال فتجده يعرض لفلسفة « كانت » فاذا هو فيها دارس عميق والغزالى فاذا هو باحث دقيق ويقارن بين النصرانية والاسلام فيكشف عن باحث خبير فيما يكتب ويعرض لشعراء الألمان كجوته فيحلله تحليلا يدعو الى الاعجاب ويتكلم فى المعتزلة والصوفية فاذا هو قد تغلغل فى أعماقهم واستبطن دخائلهم ثم عرض تعاليمهم كما يعرض الاوروبى فلسفة قومه شيقة عذبة لذيذة.

ولكن الهنود يعرضون وأشباه ذلك باللغة الانجليزية فلا يغذون جمهورنا ولا يسدون حاجة العالم العربى انما يتغذى الشرق بهذا يوم توجد هذه الحلقة المفقودة فى العالم العربى كمصر والشام فيحيى آثار الاولين بأسلوب الآخرين؛ ويوم يكسر هذا الحاجز الذى يحجز بين علم الشرق وعلم الغرب، ويوم يلوى الخطان المتوازيان فيلتقيان؟

احمد أمين

أثر الثقافة العربية
فى العلم والعالم
بقلم احمد حسن الزيات

— ١ —

الشعوب كالأفراد، فيها من يولدون على حكم الطبيعة، ويعيشون على هامش الحياة، ثم يغوصون فى ظلال العدم، لا ينعم بهم وجود، ولا ينتفع منهم انسان، ولا يعبأ بهم تاريخ. وفيها من يقبلون اقبال الربيع ينضرون الحياة بالجمال، ويمرعون الأرض بالخصب، ويفيضون على الدنيا سلاما ووئاما وغبطة! أولئك الذين يصطفيهم الله من خلقه لاعلاء حقه، فيودعهم سره ويحملهم رسالة فيعيشون لأجلها، ثم يموتون فى سبيلها، بعد ان يخلدوا فى صدر الزمان وعلى وجه الأرض آثار جهادهم فى الله، وجهودهم للناس، وفضلهم على المجتمع. وهؤلاء هم أدلاء ركب الحياة، وحمال ألوية الخليقة يقلون قلة الصفوة. ويبطئون ابطاء الخير. ولكن آثارهم تشغل فم العالم. وأخبارهم تملأ سمع الزمن!!.

هذا التاريخ على طوله وفضوله لم يسجل من الأمم التى بلغت رسالات الله بالخير والجمال والحق الا أربعا: العبران فى الدين والسلم. واليونان فى الفن والعلم والرومان فى النظام والحكم. والعرب فى كل أولئك جميعاً!

— والعرب فى كل أولئك جميعا — فقرة أقولها وأنا أعلم أن الشك فيها سيحك الآن فى بعض الصدور. لأن ما أقرته التعاليم المريضة فى الأذهان من أن اليونان والرومان هم مصادر الثقافة العالمية. وأن العرب أعجز بفطرتهم عن العلم. وأبعد بطبيعتهم عن التمدن. يجعل هذه القضية على اطلاقها سخيفة!

لقد آن للنظر الصحيح أن يرى، وللعقل المجرد أن يحكم!. أما الاحكام التى صدرت عن موتورى الشعوب وتجار العقائد وورثات الأحقاد فلا وزن لها فى نظر المنطق ولا شأن لها فى رأى العلم

كان العرب فى الشرق فاتحين وحاكمين فلا بدع أن تعصف ثورة العصبية. وتقوم دعوة الشعوبية. وتظهر فكرة الاسماعيلية والاسحاقية. ويبقى من آثار ذلك ما نشاهده اليوم وقبل اليوم فى سياسة الترك والفرس من ازورار عن العربية واضطغان على العروبة. وكان العرب فى الغرب فوق ذلك شرقيين ومسلمين فلم يكن بد من تصادم العقائد وتعارض الطبائع وتحكم الجهالة.

محاضرة ألقيت فى صالة المحاضرات بالجامعة الامريكية فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢

فنشأ محاكم التحقيق، وتصدر عقوبة التحريق والتمزيق. ويثاب التعلم بالتضليل والتلفيق. وبقي من آثار ذلك أن تظل كنيسة الحمراء تقرع نواقيسها أربعاً وعشرين ساعة قرعاً متداركاً في ثاني يناير من كل عام ابتهاجاً بجلاء العرب عن الأندلس! فكيف يرجى من هؤلاء وأولئك الاقرار بفضل العرب على الثقافة، والاعتراف بجميلهم على الحضارة. وفي النفوس من غلبة الفاتح وتر. ومن عظمة الحاكم حقد. ومن دين المجاهد احنة. ومن سلطان الدخيل نفور؟ والنهضة الحديثة لم تستطع بفلسفة ديكارت وحرية الفكر ونزاهة التعلم أن تصفي العقول من شوائب هذه المذهبية القديمة. فلا يزال نفر من العلماء يكابدون ازدواج الشخصية فيهم. فهم يجمعون في اهاب واحد بين رجلين مختلفين: حديث يتأثر بالدراسة الشخصية والبيئة الخلقية والفكرية. وقديم يتكون على بطء من تراث الأجداد ومخلفات القرون. وهذا الرجل العتيق هو الذي يتكلم في أكثر الناس، فيملي عليهم الآراء، ويلبس عليهم وجوه الحق. فاذا تنبه الرجل الحديث وتكلم وقع صاحبهما في التناقض وتعسف من جرائهما في الحكم. وأصدق الأمثلة على هذا الصنف من الباحثين العالم المؤرخ (ارنست رنان) خالق فكرة السامية والآرية، وأعدى الكتاب للامة العربية. فان ازدواج الشخصية فيه جعل آراءه في العرب متناقضة يدفع آخرها أولها. له محاضرة معروفة عن الاسلام ألقاها في السربون؛ وقد جهد أن يدلل فيها على وضاعة شأن العرب في التاريخ وقلة غنائهم عن العلم؛ ولكن الرجلين القديم والحديث كانا يتعاوران الكلام على لسانه فينقض أحدهما ما أبرمه الآخر. فبينا هو يقول مثلا: «ان العلوم والآداب والحضارة مدينة بازدهارها وانتشارها للعرب وحدهم طوال ستة قرون؛ وان التعصب الديني لم يعرفه المسلمون الا بعد أن دالت دولة العرب وخلفهم على ولاية الاسلام الترك والمغول» اذا به يقول بعد ذلك: «ان الاسلام كان لا ينفك مضطهداً الفلسفة والعلم وانه جعل من دون الحرية الفكرية سداً في كل بلد احتله». ثم يعود فيفيض القول في فضل العرب على القرون الوسطى وفيما كانت عليه اسبانيا من الرخاء والارتقاء في عهدهم. فاذا فرغ من ذلك سارع الرجل القديم فيه الى القول بأن الذين نهضوا بالعلم من المسلمين لم يكونوا من العرب وانما كانوا من سمرقند وقرطبة واشبيلية؛ وأنساه شيطانه أن هذه البلاد عربية وأن الدم العربي والعلم العربي قد تغلغلا في أصولها منذ طويل؛ وأن تقسيم العرب الى عرب وعرب مستعربين سلاح لا تفلت منه أمته نفسها اذا حلل هذا التحليل نسبها وأدبها. ثم تنتهي المعركة بين الرجلين في (رينان) بقوله في صراحة مفاجئة: «ما دخلت مسجداً قط الا تملكني انفعال شديد هو لو أفصحت عنه نوع من الأسف على أني لم أكن مسلماً!»

على أن هناك فريقاً من صفوة العلماء الأوربيين تحرروا من حكم الهوى، وتحللوا من قيد الغرض، فأقروا الحق في نصابه، وأرجعوا الفضل الى أهله فجعلهم شهودنا في اثبات ما نقول. فأن أشد ما شهد امرؤ على نفسه وأقرب الآراء الى الحق رأي الفرد في جنسه

كان العالم شرقه وغربه في أوائل القرن السابع للميلاد قد استحال كونه الى فساد. فحضارته تحطم بالترف والرخاوة. وسياسته تحكم بالغلول والأثرة؛ وأخلاقه تتفكك بالسرف والشهوة، وعقائده تنزى بالجدل والتعصب ودماؤه تهدر بين الروم والفرس لغير غرض أسمى ولا مبدأ مقدس. وكانت شعوبه منذ طويل قد فقدت مثلها العليا فهي تعيش عيش الهمل السوائم: فلا عظمة روما تحفز الرومان، ولا مجد السلف يهز الفرس، ولا سمو الغاية يسدد وثبة البربر.

على هذه الحال خرجت أمة العرب برسالتها الدينية والخلقية الى هذا العالم المتفسخ والهيكل البالي فجددت اخلاقه على الرجولة؛ وطبعت عقيدته على التسامح، ورفعت مجتمعه على المحبة؛ وصمدت للجهاد والفتح في سبيل هذا المثل الأعلى لا تطمح من دونه الى سلطان ولا تطمع من ورائه في غرض حتى أنشأت فيما دون القرنين ملكاً طبق الأرض. وحضارة هذبت العالم وثقافة حررت العقل ولم يكن ذلك مستطاعا لغير الأمم الموهوبة التي هيأها الانتخاب الطبيعي لتبليغ رسالة أو تجديد دعوة أو تحقيق (اديال Ideal). وكأين من امة قوضت سلطان أمة او امم. ولكنها لم تعد ما يفعل منسر من اللصوص سطا على قافلة او قطيع من الوحوش عدا على قرية فالشعوب الجرمانية والهونية والسلافية تعاقبت غاراتها على الرومان في الشرق والغرب فاجتاحوا ملكهم؛ والقبائل التركية والمغولية قد دهموا العرب فثلوا عرشهم. ولكن شعباً من هذه الشعوب لم يفتح قلبه للمدنية؛ ولم يجد فتحه على الانسانية فظلوا بعداء عن الحضارة غرباء عن العلم الا ما كان من تروحهم بعد لحضارة المغلوب وثقافته

اما القبائل العربية فلم يكادوا ينضمون عن كواهلهم عتاد الحرب وينفضون عن وجوههم غبار الصحراء؛ حتى صعدوا في مراقي الحضارة بسرعتهم في طريق الفتوح. واستطاعوا ان يرفعوا على انقاض اليونان والرومان والفرس حضارة ثابتة الأصول باسقة الفروع لا يظهر في عناصرها المختلفة الا روح الاسلام وفكر العرب ثم كانت من القوة بحيث طاولت الدهر. وصاولت المنير.

« البقية على ص ١٨ »